المحاضرة الرابعة والعشرون

نقد القياس العقلي :

وعلى الرغم من أن بعض العلماء السوفيت ، كانوا قد بدؤوا قبل هذا التاريخ يشككون في قيمة القياس العقلي ، والاعتماد عليه كوسيلة وحيدة لدراسة الذكاء والقدرات العقلية ، فإن القرار المشار إليه كان نقطة تحول رئيسية في منهج دراسة الذكاء والقدرات العقلية في الاتحاد السوفييتي ، ففي مجال التطبيق العملي توقف استخدام الاختبارات تقريبا , وفي مجال الدراسة النظرية عكف بعض العلماء على إبراز أخطاء القياس ونواحي القصور فيها ، وقد تركزت انتقاداتهم للقياس العقلي فيما يلي :

١- الاختبارات العقلية لا تستطيع أن تمد الباحث إلا بتقدير كمي للنتائج النهائية لحلول الفرد للأسئلة أو المشكلات التي يتضمنها الاختبار ، وبالتالي فهي تصرف الباحث عن الاهتمام بجوهر الظاهرة النفسية ، أو بالطريقة التي تحدث بها عملية حل المشكلة ، سواء أكان الحل صحيحا أو خاطئا

٢- لا تعطي الاختبارات العقلية – بسبب تركيزها على النتائج النهائية للنشاط العقلي – إلا تقديرا سطحيا عن مستوى النمو العقلي للفرد . ولكنها لا تعطينا شيئا عن طبيعة التخلف أو التفوق العقلي أو أسبابهما , إنها بذلك تصبح وسيلة فقط لتصنيف الناس , - على سبيل المثال – لا تستطيع الاختبارات أن تحدد أسباب التخلف , وبالتالي لا يمكن أن توضح لنا أي الطرق يمكن أن تستخدم في معالجته بل على العكس من ذلك , يعطي واضع الاختبار أو مستخدمه انطباعا بأنه يقيس عاملا ثابتا , ومن ثم فلا سبيل إلى تغيره , وبناء على هذا الحكم السطحي يتحدد مصير الطفل ن وقد يرسل إلى مؤسسة للمتخلفين عقليا , أو يبعد من المدرسة العادية دون محاولة جادة لاكتشاف الصعوبات أو المشكلات التي أعاقت نموه العقلي , والحديث هنا بطبيعة الحال لا يدور عن الحالات التي يكون السبب فيها نقصا عضويا محددا , وإنما عن تلك الحالات التي يتضح أنها تعاني من تخلف , على الرغم من سلامتها العضوية .

٣- يستند القياس العقلي إلى افتراض خاطئ مؤداه , أن الخصائص والوظائف العقلية أشياء ثابتة قائمة بذاتها , يمكن عزل كل منها وقياسها على حدة , ومعنى هذا أن كل سمة مقيسة لا ارتباط لها بظروف نشاط الإنسان أو أهدافه , ولا علاقة لها بالصفات النفسية الأخرى , وخصائص الشخصية ككل , ومن هنا كان افتراض أن الاختبار العقلي يمكن أن يقيس القدرة المعينة وأن يعطينا تقديرا كميا عن مستواها , بصرف النظر عن المتغيرات الأخرى في الشخصية , وهذ افتراض خاطئ ولا يستند إلى أساس علمي .

٤- الاختبارات العقلية (والجمعية بصفة خاصة) مهما أحسن إعدادها , لا يمكن أن تعطي تقديرا سليما عن ذكاء الفرد , فالمحك الرئيسي للحكم على الذكاء هو مواقف الحياة الفعلية ومشكلاتها , وبديهي أن تصرف الفرد في هذه المواقف يتأثر بمشاعره وانفعالاته . أما في المواقف الاختبارية فإن الفرد يعزل عن جميع العلاقات الاجتماعية وعن المواقف الحقيقية للحياة , بل يحاول الباحث عادة أن يستبعد أي أثر لانفعالات المفحوص ومشاعره . ومن ثم فإن الدرجة التي يحصل عليها الفرد في هذه الاختبارات لا يمكن أن تعبر تعبيرا دقيقا عن تعبيره وقدراته الحقيقية , التي تظهر أثناء مواجهته لمواقف الحياة العادية .

٥- يزعم المدافعون عن الاختبارات , أنهم باستخدامها يوفرون الموضوعية المطلوبة في البحث العلمي , والواقع غير ذلك , إذ أن الذاتية موجودة دائما , واستخدام التعبيرات الكمية والمعالجات الإحصائية لا يمكن بحال من الأحوال أن يصلح أخطاء الفقرات التي أعدت بالمحاولة والخطأ , أو يستبعد التصور الذاتي لواضع الاختبار عن الظاهرة المقيسة , وما يترتب على ذلك من انتفاء الموضوعية المزعومة .

٦- كان هناك اعتقاد ساد لفترة من الوقت مؤداه أن الاختبارات العقلية تقيس الاستعداد الفطري , دون تدخل العوامل الثقافية أو البيئية , لذلك كان يعتمد عليها في تحديد الصلاحية المهنية , وفي عمليات التوجيه التعليمي والانتقاء المهني , وقد ثبت تهافت هذا الاعتقاد , فالاختبارات العقلية تقيس محصلة الخبرات التعليمية للفرد , ولا يوجد حتى الآن اختبار واحد متحرر تماما من أثر الثقافة , وقد اعترف كثير من علماء النفس الغربيين أيضا بذلك .

٧- ونتيجة لتشبع الاختبارات بالعوامل الثقافية , ظهر تحيزها في الاستخدامات العملية التطبيقية ضد أبناء الطبقة العاملة , فالأطفال الذين نشئوا في ظروف صعبة كانوا يحصلون على درجات منخفضة في الذكاء , ومن ثم كانوا يستبعدون من المناصب الهامة , ومن مجالات تعليمية معينة .

ويعني هذا أن الاستخدامات التطبيقية للقياس العقلي , تدعم التفاوت الطبقي بطريق غير مباشر وهو ما يتعارض مع أهداف المجتمع الاشتراكي , وقد كان هذا هو السبب في اتخذا القرار السياسي المشار إليه وتوقف استخدام الاختبارات في عمليات الانتقاء والتوجيه المهني والتعليمي في الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية .

٨- إن الباحث النفسي باعتماده كلية على القياس العقلي في دراسة الذكاء , يفقد حسه السيكولوجي , ويتحول إلى مجرد كاتب أو آلة تتعامل بالأرقام والمعادلات , دون فهم حقيقي أو اهتمام بالعمليات والظاهرات النفسية الحقيقية .